الناس يهربون من هذه النكهة ، ويستبشعون هذا الردف ، حين يعرضه النواسى هذا العرضَ المضحكَ الموجعَ فى قوالب تخالها للمديح فإذاهى للتشنيع — كما قلنا —.

وهو حين يصفُ المغنيات يرسمهن كالخنافس خلف العيدان ، وغناؤهن يهيج الزمهرير ، فيقول :

إذا ما كنتَ عندَ قيان مُوسى ... فعندَ الله فاحتسب السرورا
خنافسُ خلف عيدان قعودٌ ... يُطوّلُ قربُها اليومَ القصيرا
إذا غنينَ صوتاً كان موتـاً ... وهيجن به عليك الزمهريرا

ولن نقف عند الصوت وما يُطيل من يوم قصير ، وما يبعث من مقت وزمهرير . وإنما نقف عند الخنافس وهنّ خلف العيـدان . لنتخيل هاته المغنيات البشعات وقد تقاصرن وتطاولن للعزف والغناء فى مجلس يريده الشاعر للطرب فإذا به يبعث الكرب ويدفع إلى الهرب .

وأبو العتاهية يعرض للون الأشقر فى أهل البدو فيشكك فى الحسب والنسب ، ومثله أبو تمام يعرض للون الأصفر فلا يرى فيه سقماً وإنما يجد فيه شقاءً ليس بعده شقاء لمن يتعب ويجهد .

وأما ابن الرومى فهو أكثر الشعراء تعرّضاً للخلقة والقسمات بالهجاء والسخرية . فهو بارعٌ فى ربشته الهزلية . يظهر المعايب والمساوئ فى لغة صافية لا تجد فيها لفظة نابية إلا ما ندر فهو ينم عن روح رسّام كاريكاتورى فى الهجاء يكاد يكون عالميًّا — كما نقول اليوم — فألواحه تُضحك التكالى وتبعث الدمع فى العيون لشدة ما تثير من إغراق فى التندر والإضحاك . وليس للمهجو إلا أن يتوارى عن العيون . وأن يختفى وراء الأبواب . فلا يظهر للناس خوفاً من أن يعرفوه برسمه ويتبينوه بصورته التى أبدعها ابن الرومى هديةً للقبح . ولعلّ ابن الرومى جاوز حد الصدق والواقع فيما كان يرسم . فنظر إلى الناس من خلال نظارة سوداء كما قالوا . ولم تقع عينه إلا على مشهد بشع ومنظر ينفر . فقد كان صاحب نظرة خاصة إلى الجمال ، تؤذى نفسه مشاهد الدمامة . وسنطيل الوقوفَ عنده لنستعرضَ من ديوانه هذه الصورَ التى خلدها فى متحف السخرية والهجاء . قال فى أبى قرّة :